

لماذا اختيرت جرجرة كحلبة للصراع الأيديولوجي ؟

Why was Djurdjura chosen as an arena for ideological struggle ?

سليمة فيلالي*

جامعة محمد دباغين ، سطيف 2 Salima.fillali@yahoo.com

تاريخ الاستقبال: 2024/12/22؛ تاريخ القبول: 2025/05/23؛ تاريخ النشر: 2025/10/08

الملخص:

بعد قرابة الست عقود من الاستقلال لازالت الجزائر تصارع من أجل بناء الدولة التي حلم بها وتمناها كل من عاش تحت نير الاستعمار الفرنسي، ولأن كانت الحرية والعيش الكريم هي القاسم المشترك لكل مواطن، فإن التصور لهُذين المفهومين في عقول المفكرين ومن ورائهم مختلف طبقات المجتمع يختلف اختلافا جوهريا، إلى حد النفور وإثارة مشاعر الاحتقار والبغض أحيانا، بسبب عدم تقبل تصور الآخر أو الشك في انحرافه المتعمد بالمفهومين لتحقيق أهدافه على حساب حلم الطرف الثاني. وفي ظل عالم لا تزال فيه الأطماع الاستعمارية قائمة، تمارس الوصاية الناعمة على الشعوب بوسائل أكثر فتكا وأشد إحكاما، ينزل الحالمون بالحرية والعيش الكريم ليسقطوا في شباك أيديولوجيا جاهزة ومعلبة تسلب الأنظار وتأسر الأفكار مؤمنين بأنها سبيلهم الوحيد لتحقيق أحلامهم وذاتهم.

كانت منطقة جرجرة أفضل ما يوجد ليحتضن هذا الصراع، ويبقى عليه مشتعلا إلى اليوم، فما الذي يجعل منها منطقة متميزة عن غيرها؟

الكلمات المفتاحية: جرجرة، الصراع، الأيديولوجيا، الهوية.

Sommaire:

Après près de six décennies d'indépendance, l'Algérie peine toujours à construire l'État dont tous ceux qui ont vécu sous le joug du colonialisme français ont rêvé et souhaité, au point de l'aversion et parfois de susciter des sentiments de mépris et de dégoût, faute de accepter la perception de l'autre ou douter de sa déviation délibérée des Dans un monde où les ambitions .deux concepts pour atteindre ses objectifs au détriment du rêve de l'autre partie coloniales existent encore, la tutelle douce des peuples s'exerce par des moyens plus meurtriers et plus resserrés, les rêveurs de liberté et de vie décente se glissent dans les filets d'une idéologie toute faite et en conserve qui vole l'attention et capte les idées, croyant que c'est leur seul moyen de réaliser leurs rêves et leur identité

La région du Djurdjura était la meilleure qui soit là pour embrasser ce conflit, et le garder brûlant jusqu'à aujourd'hui, alors qu'est-ce qui en fait une région distincte des autres

Mots clés : Djurdjura , conflit , idéologie , identité .

مقدمة :

حين نربي أبناءنا على الآخر العدو والآخر الصديق، فتلك فطرة مغروسة في كل البشر للحفاظ على أمن ذريتهم ، فمنذ الصغر نشعر بأبناءنا بأن هناك آخر يمكن أن يساعد ، نتعايش معه ونمنحه الثقة، وهناك آخر ثان يشكل خطرا لا يمكن الوثوق به، ويجب الابتعاد عنه، عندما يكون هذا الآخر الثاني - ولنسمه العدو - محل تركيز ، ومعرف برموز عنصرية كاللون أو اللغة أو المنطقة ، نكون قد غرسنا بذور العنصرية التي يصعب محوها مستقبلا.

إن استعمال مصطلح منطقة القبائل وترديده دون وعي بالمفاهيم التي يكرسها، دون وعي بالعنصرية التي يحملها، بالإضافة إلى كل الرموز المصاحبة للمصطلح والتي تفعل فعلتها داخل المجتمع، وتعصف بوحده وتآزره، هي بلا شك إحدى أوجه الاختلاف البارزة في الصراع حول المفاهيم، وغير مخفي عن أحد أن الراية الثقافية التي يعتبرها البعض رمز حرية وانتماء ووحدة، هي عند الأخ في الوطن والدين والمصير، راية تغريب وفرقة وتبعية.

1- أصل تسمية منطقة القبائل :**1-1- فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي :**

يستخدم مصطلح منطقة القبائل بمعنى جغرافي، حيث يستعمل للإشارة إلى جميع المناطق المأهولة بالسكان القبليين سواء كانوا بربرا أو عربا، فتكون مساحة المنطقة هنا بامتداد أكبر، ولكن في الاستعمال بمعنى الإثنية، تنقلص مساحة المنطقة لتشمل من يستعملون اللهجة القبائلية فقط.

إن دراسة هذه الدلالة السوسيوولوجية للتسمية تمر حتما بكشف علاقة الظواهر السياسية والتاريخية والثقافية المميزة للمنطقة عن باقي مناطق الوطن، والتي جعلتها تتميز بهذا الاسم، كما تنزلق التسمية بمن يقترب منها إلى مصطلحات الصراع الإثني والثقافي ، ومصطلح التعصب، وحدود الهوية في علم الاجتماع، وإلى الجهوية ، والحكم الذاتي والانفصال في العلوم السياسية.

واسم الشيء هو محدد لهويته في نهاية المطاف، كما أن مصطلح الهوية غالبا ما يقرن بمصطلح الصراع في العلوم الاجتماعية والسياسية وعلم النفس، وكل هذه المصطلحات تشترك في غايتها من مفهوم تحقيق الذات وإيجاد مكانة لها.

اهتم هيرودوت منذ أكثر من ألفي سنة بمعرفة سكان شمال إفريقيا وأصولهم ، ثم كتب المؤرخون المستوطنون من بعده وكانت جل الكتابات برغبة واحدة ، هي التعرف على المنطقة للاستفادة منها ومعرفة كيفية التعامل مع أهلها.

لم يكن تواجد الأتراك في الجزائر احتلالا استيطاني يهدف إلى تغيير البنية السكانية للوطن أو تغيير هوية الجزائريين أو دمجهم في القومية العثمانية ، وإنما جعلهم رعية تابعة تخدم سياسته التوسعية للهيمنة على التجارة في حوض المتوسط ، لذلك لا نجد في كتب المؤرخين الأتراك هذا الاهتمام بأصول الجزائريين كما نجده عند الفرنسيين.

1-2 - فترة الاحتلال الفرنسي وما بعده :

الباحث في تاريخ الجزائر يجد أن المحتل الفرنسي ، هو أكثر من اهتم بكتابة أصول الجزائريين ، بل يعرف عن تاريخنا ما لا يعرفه عن تاريخه وأصوله، وفي بداية مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، ومن خلال حملات الاستكشاف التي قادها في منطقة جرجرة والقبائل التي تقيم بها يذكر " أن أغلبية سكان المنطقة من العرب في عهد أحمد باي، ماعدا ثلاث قبائل تعود أصولها إلى الفرس " (ALPH, MEYER. p 360-365, (1958) لكن سرعان ما تم التراجع عن هذه الكتابات حيث اعتبر **توكسيير** أن نسبة افريقيا إلى أوفر ابن مديان وحفيد ابراهيم ، رأي يهودي ، لم يكن له صدق في العالم المتعلم في ذلك الوقت (H TAUXIER . (juillet1862) p356) ويتهم الكاتب المؤرخين العرب بأنهم زيفوا التاريخ ونقلوه بجهل.

كما روج مؤرخو المستعمر الفرنسي أن العرب كانوا همجيين وأنهم دخلوا البلاد للنهب والاستعباد في بداية الأمر ثم قرروا إخضاعها والسيطرة على أموالها في مرحلة ثانية ، ليصلوا إلى فكرة انتفاضة البربر ضد العثمانيين ، ومساعدة العرب للعثمانيين في القضاء على هذه الانتفاضة.

وبعد مضي أكثر من قرن على الاستعمار نجد صاحب كتاب أصول البربر CAMPS. Gabriel يقول " أن شعوب افريقيا الشمالية البيضاء منذ القرن الخامس قبل الميلاد ودون ريب قبل ذلك على صعيد نمط المعيشة تنقسم إلى قسمين مختلفين: المزارعون المستقرون، سكان البيوت، ومربوا الحيوانات الرحل الذين يسكنون الخيام، والحال أن هذا الاختلاف في نمط المعيشة لا يتعارض مع كون السكان ينتمون إلى عائلة لغوية واحدة.

هؤلاء البربر المستقرون والرحل - منذ فترة موعلة في القدم وسابقة لكل احتلال أجنبي - اسمهم **الملازيس (إمازيغن)** أما الاسم الليبي مع أنه من أصل افريقي فإن الاغريق هم الذين نشره ووسعوا نطاق استعماله ليضم كل سكان افريقيا الشمالية (البربر) ثم اختزلوه في البربر من رعايا قرطاج. (تعريب وتحقيق د. العربي عقون ، ص 44).

من المعلوم أن المؤرخين الفرنسيين كانوا حريصين على إعادة كتابة تاريخ المنطقة بحسب سياستهم وأطماعهم الاستعمارية ، ولعل ما جاء في تقرير قدمه 'كاريت' ما يوضح ذلك ، حيث ذكر في تقريره إلى وزير الحرب سنة 1851 " أنه قلص عدد السكان العرب إلى مليون نسمة ورفع عدد السكان من أصل بربري إلى مليونين لسببين ، أولها أن الدراسة لا تشمل بعض مدن الساحل والصحراء حيث لا يمكن التمييز بين العنصرين بسبب التداخل بينهما ، والسبب الثاني أنه حسب اعتقاده بعض القبائل تسرب إليها استعمال العربية لكنه من الجانب الإثني يجب اعتبارها ذات أصول إفريقية". (E. CARETTE . (1851) p442).

نفس الكاتب يفصح في فقرة أخرى عن هدفه من الدراسة فيقول " أن هدفه هو كشف الأسباب التي جعلت شمال إفريقيا تتذيل مكانتها بين الأمم. وأن يبين من بين العرقين الذين يسكنانها، من هو الأذكى والجدير بالمشاركة لحضارتنا ، ومن سيجابها بمقاومة غريزية لا تقهر."

(E. CARETTE . (1851). p318.)

ومن خلال بحثنا في عشرات الكتب والمجلات من مصادر مختلفة التوجهات والمشارب وجدنا أن منطقة القبائل لم تتميز عن باقي مناطق الوطن بهذه التسمية سوى في عهد الاستعمار الفرنسي للجزائر. فقد ميز أوائل قادة الجيش الاستعماري المكلفين بالتوسع داخل البلاد بين القبائل التي تعيش في المنطقة وبقية القبائل الجزائرية المنتشرة في ربوع البلاد " الاحتمالات التي يمكن استخلاصها من الموقع الجغرافي والحدود الطبيعية وملامح الشخصية المهيمنة، تتفق كلها حسب رأيي مع وجوب فصل البربر عن الساميين والمصريين والكنعانيين وتصنيفهم ضمن عائلة الآريين من مجموعة الإيون من جهة ومجموعة السلتيك من جهة ثانية" (M. G. OLIVIER.(1867). P 95)

والباحث في تاريخ مصطلح الآريين الذي ورد عند مؤرخي المستعمر، يكشف ارتباط المصطلح بظهور الفكر الاستعماري واستغلال الألمان لهذا المصطلح لخلق النازية وأيديولوجية تغلب السلالة الجرمانية على بقية السلالات، ويؤكد أن هذا الاستغلال سبقت إليه فرنسا الاستعمارية قبل أن يخوض فيه داروين ومن عاصره من مفكرين وسياسيين وعسكريين.

ومن المهم معرفة أن مصطلح القبائل في بداية العهد الاستعماري كان يشير إلى كل القبائل التي تسكن جبال الأطلس وفروعها المتجهة شرقا، ونجد الباحث أرسن برتاي يصنفهم ضمن القبائل النوميديّة الموريطانية التي استوطنت بإفريقيا، ويشير إلى أن بعضهم ربما ينحدر من أوروبا يسكنون في جبال الأوراس يتميزون بالبشرة البيضاء والشعر الأشقر، ويفصلهم في تصنيفه. لسكان الجزائر عن بني مزاب والتوارق والعرب والمورس واليهود.

(ARS`ENE BERTEUIL.(1856). p35-36)

لكن سرعان ما ظهرت كتابات تبرز تغير سياسة المستعمر في استخدام مصطلح القبائل بما يتماشى مع استراتيجية تعمير الجزائر باستغلال قبائل جرجرة بدل الاعتماد على تجنيس الاسرائيليين والمعمرين الأوروبيين أو استخدام الجنس الأصفر من آسيا، وذلك نظرا لما لاحظته عند قبائل جرجرة من مؤهلات و قابلية لاستصلاح الأراضي وخدمتها، يقول الكاتب " القبائلي سيكون المعمر المثالي الذي يجب الاعتماد عليه في الاستيطان لجل الجزائر فرنسية" (JULES LIOREL . (1892) . p543-544)

وقد حكم الكثير من الباحثين الجزائريين والعرب بأن المؤرخين الفرنسيين في أصول البربر يجرون محاكمات لما سينييسا على أساس أيديولوجي يريد أن يثبت ويزرع فكر أيديولوجي مفاده أن توجه ماسينييسا السياسي والفكري وتعامله مع الرومان مجبرا لتحقيق غاياته أحسن من توجه سيفاكس المتعامل مع القرطاجيين، كما يتضح أن إفريقيا وتاريخها كان ضحية لأطماع متعارضة بين الشرق (قرطاج الفينيقيّة) والغرب (روما).

يقول الباحث رمزي رويغي " ترجمة مؤلفات عن ابن خلدون من طرف المستشرق الفرنسي البارون دي سلان

Le Baron De Slane (1801/1879) قدمت خدمة بالغة الأهمية. فمن خلال تقديم العديد من الأمور كمسائل عرقية، وإدراج

العرق مرارا وتكرارا كمكوّن رئيسي في نسيج الجزائر وتاريخها، ساعدت ترجمة **دوسلان** الفرنسيين على تحويل مسلمي الجزائر إلى عرقين لشعبيين مختلفين: العرب والبربر. وأدى هذا التقسيم إلى خفض منسوب التهديد الذي شكلته الوحدة في مواجهة المستوطنين (p156).

(RAMZI ROUGH)

قبل الانتقال إلى المحور الثاني نسوق هذا التسائل لمؤرخين جزائريين " المشكل الذي يبقى مطروح فعلا هو ذلك الذي يتعلق بهوية سكان جبل بجاية ، أي نسبهم، فهل كانوا كتاميين شيعة كما يقول البكري؟ أم أن بجاية كانت بربر من صنهاجة كما يقول ابن خلدون؟ أم أنهم أخلاط من البربر والرومان،

لجؤوا إلى ذلك الجبل ،خوفا من الفاتحين المسلمين، وصاروا يسمون بقايا أو نجايا ، كما تذكر الرواية التي يقول فيرود Féraud أنه نقلها عن مثقفين ببلاد القبائل ؟ إنه لمن الصعوبة بمكان حسم هذه المسألة. (محمد بن عميرة. لطيفة بشاري بن عميرة .(2015). ص 42 لكن السؤال الذي نترك إجابته للقارئ هو: لماذا اهتم مؤرخو الاحتلال الفرنسي بأصول الجزائريين، أكثر من اهتمامهم بأصولهم؟

بعد هذا العرض المختصر لخلاصة ما كتب في تاريخ الجزائر عموما ، وأصول البربر خصوصا، لم نجد فيه تركيزا على منطقة القبائل ولا تسمية لها بهذا الاسم إلا فيما كتبه مؤرخو الاستعمار الفرنسي، وقد تبين من مجمل ما درسناه أن سكان المنطقة تميزوا عبر العصور بخدمة الأرض والارتباط بها ، ما أجبرهم على البقاء في أرضهم والتعامل مع كل غريب بما لديهم من وسائل، فمرة نجدهم يقاومون ، ومرة نجدهم يتفاوضون أو يرضخون، لكنك لن تجدهم أبدا يهجرون أرضهم دون رجعة كما تفعل بقية القبائل التي سكنت جنوب الجزائر، لكن هذا لا يعني أن كل السكان تعود أصولهم للمنطقة، بل ثبت في التاريخ أن المنطقة عرفت الكثير من الهجرات إليها من مختلف الأنحاء استوعبتهم ولم يستوعبوها.

إن البحث في التاريخ هو أحد السبل التي اعتمدناها في فهم موضوع البحث وما يحيط به من مفاهيم ارتبطت بالمنطقة ، وغدت أيديولوجيا الشرق والغرب المتنافران، و مشكلة انتماء حضاري أثارها المستعمرون وسقط في شركها الجزائريون.

2- الهوية موضوعا للصراع الأيديولوجي :

2-1- التوظيف السياسي لمسألة الانتماء :

بدأ الاستعمال السياسي للهوية في شمال إفريقيا منذ **سيفاقس** الذي يعتبر أول من استغل الهوية الوطنية سياسيا في تجسيد طموحات سكان شمال إفريقيا في الاستقلال بوطنهم عن الحضارات الوافدة والمهيمنة بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد وقد اعتمد في ذلك على موالاة قرطاج ومصاهرة القرطاجيين، وفي نفس الفترة ظهرت نفس النوايا عند **ماسينيسا** ولكن بالاعتماد على روما في تحقيق هدفه.

هذا أول اختلاف في التوجه يذكره المؤرخون، اختلاف وجدنا أثره كما سبق في كتابة التاريخ منذ ما قبل الميلاد إلى أيامنا هذه بين مؤيدي توجه سيفاقس نحو الشرق وتوجه ماسينيسا نحو الغرب، وسيبقى هذا الحد الفاصل بين انتماءين قائما ومستمرًا مع توافد الفتوحات الإسلامية حيث "عرف المغرب العربي أشكال من الصراع والفوضى منذ القرن الرابع للهجرة تسبب فيه نزاع البتر والبرانس ، ممثلين في زناتة وحلفائها من جهة وصنهاجة وحلفائها من جهة أخرى" (موسى أحمد بني خالد . (2002) . ص 82 .)

ونشأت دويلات متناحرة وتوافدت قبائل عربية ممثلة في بني هلال وبني سليم ، ومع بداية العهد العثماني في الجزائر، انقسم الجزائريون بين خاضع وموال وحليف وممتنع، هذا الانقسام تحكمه الجغرافيا بحكم قرب تواجد القبائل من مناطق السيطرة العثمانية أو بعدها عنها، كما تحكمه موازين القوة من حيث قدرة القبائل على المواجهة ما يجعلها تخضع أو تتحالف أو تمانع وتستقل بسيادتها.

لا شك أن هذه الظروف فرضت هوية سياسية لكل قبيلة ، ساهمت في رسم حدود جديدة بين مكونات المجتمع، حدود يمكن أتم وصفها بالعمالة والمقاومة عند البعض، وبالتحضر والفوضى عند البعض الآخر، لكن هذه الحدود سرعان ما عرفت تغيرا آخر في بداية الاستعمار الفرنسي، الذي صنف الجميع بالآخر غير المتحضر، وبتغيير سياسته الاستعمارية لجأ إلى احتواء جزء من الجزائريين قصد تدجينهم واستغلالهم ، ليرسم حدود جديدة لهوية

الجزائريين، خضعت لعنف المستعمر في بدايتها، ثم تعرضت للاختراق الفكري والعقائدي في مرحلة ثانية، لكن طبيعة المستعمر وسياسته التي غلب عليها التمييز العنصري الذي لم يتخلى عنه ولو للحظة هي ما جعلت غالبية الجزائريين يتمسكون برغبتهم في الانفصال والتحرر من قيوده .

إذا كان البعض يعتقد أن الصراع الهوياتي هو ثمرة السياسة الاستعمارية المنتهجة ، فهل بقي شكل الصراع على شكله الأول ؟ أم هو يتغذى من التاريخ ومصادر أخرى ليتخذ شكلا آخر بخصائص جديدة لم تكن من قبل ؟ وهل يمكن أن يتطور ليصل حد النزاع ؟

2-2- منطقة جرجرة حلبة للصراع الأيديولوجي

2-2-1- الثقافة كموضوع في الصراع

مع استلام الجزائريين لمقاليدهم وبلدهم واسترجاع حريتهم وسيادتهم، بدأت مخلفات المستعمرين على مر العصور تحدد توجهات السياسة والراغبين في السلطة، بين من يجند الشرعية الثورية ومن يجند المعتقد ، وبين من يجند الثقافة، وإذا كانت الشرعية الثورية قد وصلت إلى نهايتها بحكم الزمن ، فإن من جندوا العقيدة أجبروا على التخلي عن هذا التوجه المضطهد والمحاصر بعولمة لا تتوقف عن التفكيك وإعادة التركيب، وأما من اعتمدوا على الثقافة ولقحوها بالعلمنة والديمقراطية ليكسبونها حجما أكبر فقد عاشوا بين الماضي والمأمول ولم يجدوا لهم مكانا في الحاضر.

إن منطقة جرجرة جزءاً من الجزائر لا يختلف عن بقية المناطق سوى في بعض الجزئيات التاريخية كما أوردناها، لكن التوجه السياسي بالدرجة الأولى، والذي حدد الهوية الثقافية كقاعدة لكل منطلقاته، هو ما جعل المنطقة تنفرد بخصوصيات عمقت من اختلافها عن بقية مناطق الوطن. و من المعروف أن حزبي جبهة القوى الاشتراكية وحزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية صارا حزبان للمنطقة بامتياز، ونتائج الانتخابات منذ التعددية الحزبية لا تترك مجالاً للتشكيك في هذا الأمر. غير أن هذا لا ينفي وجود أحزاب أخرى تشربت من فكر الحزبين واتجهت في تحقيق غايتها إلى استعمال فكر سياسي آخر من شأنه أن يجد قاعدة شعبية أوسع لكنها لم تفلح لحد الساعة.

لقد جعلت بعض الأحزاب شعار الدفاع عن الهوية الأمازيغية من أهدافها الرئيسية، ما جعلها تنحصر في رقعة جغرافية تميزت بالربيع الأمازيغي ومطالبه، وقد حاولت السلطة الاستجابة لها لتسحب ورقة المطالب من هذه الأحزاب وتضعفها، وبالرغم من ذلك لازالت هذه الأحزاب تنفخ روحاً جديدة في ما تسميه قضية بربرية هي بالأساس سبب بقائها في الساحة السياسية، حيث يعد تخليها عن هذه القضية ترسيماً لزوالها من المنطقة التي ترعرعت فيها ونحى بها.

إن الصراع في مفهومه الطبيعي هو البرنامج الوراثي المشترك بين كل الكائنات الحية الذي يضمن وجودها و بقائها. فبعض الحيوانات تبدأ صراعها بقتل إخوتها لتتغذى عليها قبل الخروج من بيئة الحضنة، كما أن بعض النباتات تلجأ إلى التطفل على حشرات وقتلها من أجل التكاثر، أما البشر فقد هذبت حياتهم الاجتماعية صراهم وولدت منه أنواع من الصراعات.

و الصراع (Conflict) في بعده الاجتماعي إنما يمثل " نضالاً حول قيم، أو مطالب، أو أوضاع معينة، أو قوة، أو حول موارد محدودة أو نادرة، ويكون الهدف هنا متمثلاً ليس فقط في كسب القيم المرغوبة، بل أيضاً في تقييد أو إلحاق الضرر أو إزالة المنافسين أو التخلص منهم" (منير محمود بدوي . (1997). ص 37).

والصراع قد يختص بالفرد كما قد يشمل الجماعة كما أنه يأخذ أشكالاً عديدة سلمية أو تتسم بالعنف، والأهم من ذلك هو تعدد أسبابه. هذا الصراع في بعده النفسي يمكن أن يفسر بالشعور بالقهر، الرغبة في تحقيق الذات، الحاجة إلى التقدير والبحث عن المكانة، الشعور بآداء رسالة، أما في بعده السياسي فهو يعبر عن اختلاف في الأفكار والتوجه السياسي والرغبة في الوصول إلى السلطة لتجسيد هذه الأفكار والتوجهات.

عندما تصير الهوية موضوعاً للصراع والتلاعب بعقول البشر، يصير الاعتقاد أن الهوية الفردية أو القومية سبب في النجاح أو الفشل وتحجب حقيقة أن داخل الهوية الواحدة يوجد الناجح كما يوجد الفاشل، وأن تحقيق الغايات يعتمد على حسن تسيير ما لدينا من إمكانيات، وعلى مقدرة الفرد في التكيف مع أوضاعه وبيئته والاستفادة منها.

وإن كان في الهوية ما يجمع فإن فيها ما يفرق ويشتت، فقد عرف الجزائريون كيف يستخدمون الهوية تحت شعار الجزائر لأبنائها، وشحنوا الهمم بمقوم العقيدة فكانت لهم دولتهم وحريتهم، وبعد عقود من الاستقلال وعلى أساس نفس الركائز التي وحدتهم، نجد فئتين تتصارعان، تنتهم فئة غيرها بأنهم أتباع الغرب وأبناء فرنسا وأعداء الدين الذي عقد لواءه في الجهاد، وتنتهم الفئة الثانية غيرها بأنهم أوفياء للقومية

العربية على حساب وفائهم لوطنهم ، وأنهم ظلاميون لا يمثلون الإسلام الحقيقي. إنه التعصب الذي عرفه عياش بأنه "اتجاه سلبي يتضمن مجموعة من الأفكار والمعتقدات الثابتة حول الأشياء أو الأشخاص الآخرين بحيث يصدر أحكاما ثابتة ضدهم في جميع الظروف ويتحدد الاتجاه السلبي في الاتجاهات (الشخصية ، الدينية ، القومية)" (بشرى عناد مبارك . (2013))

وفي ظل الاستغلال السياسي للهوية ، ولدت **التنشئة العنصرية Racialization** " وهي العمليات الاجتماعية التي بمقتضاها تصنف جماعة سكانية معينة باعتبارها تمثل سلالة أو جماعة عرقية" (جوردون مارشال . (2007) .ص 434) ، وظهرت نزعة عنصرية تقول أن سكان المنطقة شعب منفصل عن الجزائر يجب أن يستقل بسيادته ، و ما يميز هذه النزعة أنها ضعيفة وتواجد منظريها خارج الجزائر جعلها ورقة بيد قوى أجنبية تستعملها للابتزاز ، وكرد فعل على هذه النزعة ظهرت نزعة متطرفة من خارج المنطقة ، تصف **حركة الماك** ومنتسبيها والمتعاطفين معها بالخونة وعملاء للعدو ، وهو ما يفسر مصطلح المؤامرة ووجود اختراق فكري وإعلامي من طرف قوى أجنبية ، فالتلويح بورقة مساندة القضية الأمازيغية من طرف بعض الدول لا يترك مجالا للشك بأن القضية صارت ورقة ابتزاز وضغط لتحقيق مصالح أجنبية.

في مستوى أقل تطرفا من السابقتين نجد نزعتين ، تعتبر إحداها أن سكان المنطقة مهمشون ومستبعدون عن مواقع القرار السياسي ومستقبل الجزائر ، فيما تدعي نظيرتها أن سكان المنطقة مهممون على مواقع القرار السياسي ومستقبل الجزائر .

في ظل هذا الانقسام نجد أن أحسن توصيف لهذه الحالة هو ما ذهب إليه **يوسف زلغوط** لتعريف الأيديولوجيا بأنها "منظومة أفكار ترتبط بمصلحة تكوين اجتماعي أو تكوينات اجتماعية مختلفة، وذلك لتفسير ولتبرير النظام الاجتماعي والسياسي القائم أو المقترح في مرحلة تاريخية محددة، فإذا كان قائما تدافع عنه ، وإذا كان مقترحا تسعى لبنائه ، وهي تطرح آليات عملية حول كيفية المحافظة على النظام الاجتماعي والسياسي أو تغييره." (يوسف زلغوط . (2021)) على ألا يعتقد القارئ أننا نتبنى المفهوم أو نخوض في تحليله كما تفعل الفلسفة ، ولكن دور الباحث الاجتماعي هو وصف الظاهرة الاجتماعية بما يجده في الواقع وما يطابقه من مفاهيم.

إن تحالف الأيديولوجيا السياسية والأيديولوجيا الثقافية دفعت فئات من المجتمع ليصنفوا ذواتهم إلى انتماء عربي أو بربري. لذلك نجد انخراطهم في العمل السياسي والثقافي يوظف الكتابة والفن والرياضة وكثير من مناحي الحياة الاجتماعية حسب هذا الانتماء ، وهذا ما جعل العمل الثقافي متخلف عن قطار التطور والخروج من محيطه الصغير إلى العالمية ، لأن على الثقافة أن تتخطى حدود الانتماء لتتمكن من الإبداع وتكون صالحة للتسويق والمنافسة في ظل العولمة ، حيث يتحول كل جهد بشري إلى سلعة قابلة للترويج ، هذا ما دعى إليه **نتشيه** " إن الثقافة الحقيقية هي التي تخضع للحياة ، وتخدم قانونها الأساسي ، أما ما يسمى بالثقافة منذ ألفي سنة ، فهي فاسدة خادعة لأنها لم تفتأ تنتكر لقانون الحياة" (عبدالله العروي . (2012) . ص 45) ، وهو يقترب في رأيه هذا من مقولة **فرويد** " إن الأفكار أوهاام تخدعنا بما الرغبة الإنسانية لتصل إلى هدفها ، وتعرية الأوهام من صبغة الحق التي يلصقها بها العقل المخدوع هي واجب العلم " (عبدالله العروي . (2012) . ص 51) .

من هنا نعي أن الثقافة ستتوقف عن تحولها إلى مشكلة وعن البروز ، عندما تصبح غير صالحة لتحقيق رغبات أصحابها. ولأن الرغبة خاضعة للظروف، يستطيع الإنسان أن يغير أفكاره بتغيير ظروفه ، كما يستطيع أن يعدل رغباته بالعلم و الموضوعية في حل مشكله.

إن الشعور بعدم الثقة، ومحاربة الآخر، والابتعاد عن الموضوعية ، وغيرها من الحالات النفسية السلبية هي سمات الصراع الأيديولوجي الذي وقف عليه كل الباحثين في العلاقات الإنسانية ، وهي حسب رأيي ما يسطر حدود وهمية بين فئتين من نفس المجتمع ، لذلك وجب الخروج من مأزق الأيديولوجيا نحو أفق آخر، بمفهومنا الحضاري الآتي لا بنظرة غربية لا تعكس خبرتنا وواقعنا المغاير.

وللخروج من هذا الواقع البائس علينا إبعاد منظومة أفكار الأوروبيين و المفكرين المسلمين التي استهلكت منذ زمن بعيد لا يمت بصلة إلى حاضرتنا ومستقبلنا، وعن هذه الأيديولوجيا يقول عبد الله العروي " يرى الفكر الإسلامي أن الصواب هو نتيجة الفكر السليم ، والخطأ هو نتيجة الشيطان، بينما ترى فلسفة الأنوار أن العقل يعكس بطبعه الحقيقة على وجهها الصحيح ، إذا عجز عن ذلك فبسبب الأفكار الموروثة التي تعكر صفاءه."

(ميكيل تومبسون، ريتشارد إليس، آرون فيلدافسكي. (1997). ص 17).

إن مفهوم الثقافة بأنها تراث يجب المحافظة عليه والانطلاق منه ، أثبت فشله وعدم صلاحيته في معالجة قضايا الألفية الثالثة ، حيث يتحتم على من يبحث عن مكانة بين الأمم ، أن ينطلق من حاضره ويستشرف مستقبله ، عليه أن يكتب للمستقبل لا للماضي، على الثقافة أن تكون إبداع لا قوالب جاهزة يعاد تلميعها.

وإذا أخذنا بما أبرزه **مالينوفسكي** " بأن السمة النفسية العضوية للوظيفية في نظره لكل الثقافات على أن وظيفتها إشباع الحاجات العضوية والنفسية للأفراد. ومن ثم فالثقافة عنده وسيلة لا غاية". (عبدالله العروي . (2012). ص 30) ، فما هي الغاية التي يروجها من يدعون الدفاع عن الهوية الثقافية ؟

سبق وأن عبرت في كتابات مضت " أن الثقافة هي تلك البيئة المادية والمعرفية التي صنعها الإنسان ويتفاعل معها باستمرار وهي الشكل الديناميكي للحضارة ، و الثقافة كل متغير، لكن أجزاءه لا تتغير بنفس السرعة . وبهذا فالثقافة ليست بداخل الإنسان بل هي أيضا خارجه ، واستحضرت مقولة **إميل دوركايم** " إن أفكارنا حول العالم وكيف تسير الحياة فيه نابعة من علاقاتنا الاجتماعية ، فالعلاقات الاجتماعية تولد أنماطا لإدراك العالم من حولنا، وهذه الأنماط بدورها تساهم في الحفاظ على تلك العلاقات ، ويتمثل (أو يستبطن) الأفراد في المجتمع النظام الاجتماعي السائد لغرض معين أو وظيفة هي دعم نمط حياة ما، فالأدوار و المعايير التي تشكل النظام الاجتماعي تكمن في داخل الأفراد ، كما توجد خارجهم ، و تمارس هذه الأدوار و المعايير تأثيرا مستقلا على من أوجدوها، هذه الحقائق الاجتماعية يعتبرها **دوركايم** المجال الخاص بالعالم الاجتماعي. (ميكيل تومبسون ، ريتشارد إليس ، آرون فيلدافسكي . (1997). ص 20).

ومن المفكرين من يرى أن كل فرد وكل جيل يجد نفسه في بيئة ثقافية ليست من اختياره وإنما هو يتقوّل بها كنتاج حتمي لا سبيل إلى تجاوزه فيمتص تلقائياً لغة قومه ويتشبع بكل ما تحمله اللغة من تصورات رديئة أو جيدة ، صحيحة أو خرافية ومع ذلك يرى فيها ذاته فيستमित في تأكيد هذه القوالب وفي الدفاع عنها، وبهذه الرؤية تصبح الأمم محكومة بقوالبها الثقافية.

توقع سميث (Smith) وهو عالم اجتماع حظي بشهرة واسعة بسبب كتاباته التي تدور حول النزعة العرقية **ethnicity** والثقافات القومية ، عند محاولته استقراء صورة لذلك النوع من الثقافة "الكوزموبوليتانية" العالمية اعتماداً على تنامي التقنيات الجديدة المتعلقة بالكمبيوتر، والمعلومات، والاتصالات ، من ناحية ، ومن " التجربة الغربية الخاصة بثقافات ما بعد الحداثة " ، من الناحية الأخرى (أن الثقافة العالمية ... ستكون من عدد من العناصر المنفصلة تحليلياً: والتي تتمثل في سلع يتم إنتاجها على نطاق واسع ويتم الإعلان عنها بشكل فعال، ومزيج من الأنماط العرقية أو الشعبية وموضوعات **motifs** مجردة من سياقها، وبعض الخطابات الأيديولوجية العامة المعنية " بالحقوق والقيم الإنسانية " ، ولغة كمية و "علمية" مقتبسة للتواصل والتقدير، تدعمها جميعاً أنظمة الاتصالات اللاسلكية ونظم المعلومات الجديدة وتقنياتها المحوسبة ...) (جون توملينسون. (2008). ص 101) ، ونعود للتذكير بأن للثقافة مفاهيم عديدة لا يمكن حصرها، والواجب أن يكون مفهومها عندنا بما يتوافق مع واقعنا ونظرتنا للمستقبل، غير ذلك فهو ضياع لأي جهد.

2-2-2- اللغة كمحدد للهوية :

لا يمكن أن نتجاوز الرافض الواضح الذي تبديه فئات كثيرة من هذه المنطقة للانتماء العربي، واستعمال اللغة العربية، بل نتجاوز الأمر إلى تفضيل اللغة الفرنسية بدل العربية ، حيث يعتبر البعض أن المستعمر الفرنسي حمل الحضارة والتنوير فيما حمل العرب إلى منطقتهم التخلف و الظلامية على حسب قولهم، لذلك نعتبر اللغة هي أهم حاجز بين سكان المنطقة وبقية مناطق الوطن.

تعد اللغة بالإضافة إلى دورها المهم كأداة للتخاطب ونقل المعرفة ، عنصر تمايز مهم في المجتمع ، فحين توجد عدة لغات محلية تجعل الجماعات التي تمارسها تصارع لفرض وجودها ككيان متميز عن بقية المجموعات.

ويشير سيريل إلى أن اللغة من أخطر المؤسسات الاجتماعية " لأنها تصنع/ تزيّف أفكاراً تتحكم فيها فتجعلنا أقوى أو أضعف، وتمارس سلطة علينا، وتدفعنا للفعل داخل سياج المؤسسة الاجتماعية. (جون ر. سيريل R.Searle John . (2012) . ص 19) ووجود عدة لغات يعد عاملاً من عوامل التمايز داخل المجتمع الواحد ، وفرصة للمتطرفين لخلق جو من الصراع الذي يستهويهم.

منذ قرابة العقدين من الزمن خلص الباحث **جناوي عبد العزيز** حول الصراع الاجتماعي باللغة في الجزائر إلى " وجود المجتمع الفرنكوفوني في مقابل المجتمع عربي اللغة من خلال حدود اجتماعية - ثقافية رمزية له تواجد إقليمي ، واستعمال هذه السمات الثقافية كمعالم للهوية الاجتماعية، كلا منهما يتبنى مشروع ثقافي - حضاري للحفاظ على مصالحهما عبر النظام التعليمي وفرض هذا المشروع على الآخرين من خلال علاقات نفوذ عبر اللغة. " (جناوي عبد العزيز . (2003). ص 139)

وفي دراسة أخرى حول ازدواجية النخبة في الجزائر شملت النخبة الإعلامية كمثال ، كشفت الدراسة عن وجود نخبة إعلامية تعيش وتفكر حسب أنماط ومعايير الثقافة الغربية ، ونخبة تنتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية وبين هاتين النخبتين يدور صراع ومشاحنات حول تصور وتقييم المشروع الحضاري للمجتمع ، وقد طال هذا الصراع أهم المسائل الثقافية بدءا باللغة والدين والأسرة والمدرسة والتاريخ ورموزه.....(أم الخير تومي. (2009). ص 83)

وإذا كان الصراع اللغوي في كامل أنحاء الجزائر بدأ بين المفرنسين والمعربين مع بداية الاستقلال إلا أنه تحول إلى صراع بين الأمازيغية والعربية بمجرد أن تم التعريب وانحصر استعمال الفرنسية في مناطق محدودة من بينها منطقة جرجرة والمدن الساحلية، ما جعل أحد المفكرين الجزائريين يقول إن فرنسا تحارب الإسلام "باللائكية" وتحارب العربية "بالبربرسية"!! ، والعلاقة الحميمة بين الحركة البربرية في الخارج و الفرنكوفونية في فرنسا وبلجيكا وسويسرا وكندا توحي بذلك. وهي نفس الفكرة عند د. محمد خروبات حيث كتب في مقال له " البرابرة في عرف الفرنكوفونية استعربوا لساناً ودماً وروحاً ، ومن السهل جداً إخراجهم من العروبة لإدخالهم في الفرنكوفونية " (محمد خروبات . [org/book/1541/4313#p2.https://al-maktaba](https://al-maktaba.org/book/1541/4313#p2) تاريخ الزيارة 2021/04/12).

هذه الأيديولوجيا مترسخة في المنتج الفكري العربي عموما والمغاربي العربي على وجه الخصوص، وهي مقابلة لفكرة التبعية الفكرية للعرب الذين يريدون فصل المغرب العربي عن أصوله الأمازيغية لكن بأقلام أغلبها فرنكوفونية، لذلك لا تستغرب أن تجد سكان منطقة جرجرة يتبنون اللهجة الفرنسية باعتبارها تمثل من يدافعون عن هويتهم الثقافية ويتجنبون الحديث بالعربية باعتبارها الثقافة المهيمنة ، التي تريد القضاء على قضيتهم الثقافية.

إلى وقت قريب كان يستعمل مصطلح جبايلي لوصف سكان المناطق الجبلية في الأوراس من طرف بقية أهل المنطقة غير الجبليين، ومع مرور الزمن تلاشت هذه التسمية بعد استقرار معظم سكان المناطق الجبلية في المدن ، وما يفسر هذا التخلي عن التسمية قد يعود إلى أن التباعد بين أهل المنطقتين خاصة في لهجة التواصل بين أفرادها تحول إلى تناغم حيث يسعد كل طرف حين يستعمل لهجة الآخر تعبيرا عن رغبة في التقارب والتفاهم.

بالبحث في محرك قوغل على ما كتب حول الإثنيات بالجزائر، نجد هذه الأيديولوجيا في الصراع بين الأقلام العربية وغربتها الفرنسية، هذه العينات مما كتب ويكتب يوميا ، يؤكد أن هناك رغبة قوية في التمييز ، ووضع حدود وتكريس رموز تفصل بين الجزائريين ، وترسم حدود لهويتين متصارعتين.

وفي ظل دفع هذه المواجهة للاستمرار، نجد نفس أفكار المفرنسين في صراعهم ضد المعربين ،تبناها أصحاب النزعة الأمازيغية لكن بحجج إضافية لتقوية موقفهم ، فاستعملوا من التاريخ ما يشير إلى أصول الجزائريين البربرية ولغتهم الأمازيغية وأسماء الملوك وعظماء الأمازيغ الذين خلدهم التاريخ، واضطروا إلى تسفيه كل توجه يشيد بالعربية أو من كانوا سببا في وجودها بالجزائر، وبالموازاة انخرط المدافعون عن العربية في هذا الصراع على نفس الاستراتيجية والتطرف.

ويعطي الجدول التالي فكرة عن الصراع اللغوي في الجزائر. (لونيس فارس . (2013-2012). ص 105)

المعربون في مخيلة الآخر	الآخر في مخيلة المعربين
شعبيون - أصوليون - متخلفون - عروبيون - برجوازيون - ظلاميون - أعوان الدكتاتورية -مرتزقة.	بربريون - ماركسيون - مضادون للوحدة الوطنية - فرنكوفونيون - محبون للفرنسية - خونة- الخونة الجدد.

لم تفلح الايديولوجيتان السياسيتان والثقافيتان في جعل التاريخ دليلا على قوة حججها، حتى أن لجوءها لاستغلال الدراسات الجينية لإثبات أحقيتها في السلطة وتحديد التوجه بأت بالفشل، ذلك أن هذه الدراسات تخضع لموافقة الحكومات والأفراد على حد سواء، كما أن المؤسسات التي تقوم بها مدركة للنتائج الوخيمة لسوء استعمال أبحاثها ، بل كانت محل متابعات قضائية أجبرتها على دفع تعويضات لبعض القبائل والحكومات. وقد وجدنا خلال بحثنا هذا ، محاولات بعض الباحثين لاستخدام التاريخ في استنتاجات حول أصول الجزائريين ، من خلال تتبع الهجرات التي اعتمدها الأسلاف منذ مئات أو آلاف السنين ، واستعمل المتعصبون للهوية بجهل الدراسة الجينية الجغرافية ، التي أجرتها ناشيونال جيوغرافيك ، وروجوا أن نتائج الدراسة تشير إلى أن 99.9 بالمئة من المغاربة هم أمازيغ. وإذا كان هذا التزييف للحقائق العلمية رائج في مواقع إلكترونية لا يعتد بها ، فإنه من الغريب أن نجد نفس الأخبار بعنوان آخر - التحليل الجيني يثبت أن العرب ليسوا عربا تماما - تنقلها RT Arabic الروسية وتضع لها مصدر مجهول. و كان ذلك عام 2017 في خضم خلافاتها مع دول عربية في القضية السورية ، وقد تكون الاستعمالات الأيديولوجية والسياسية وراء جملة من البحوث المصرية المنشورة للرد على هذه الأيديولوجيا.

بعض المشتغلين في علوم اللسانيات أيضا ساهموا ببحوثهم قصد إثبات أو نفي العلاقة بين العربية والأمازيغية، وتحولت كتاباتهم وبحوثهم إلى أداة تستخدمها الأيديولوجيتان باختيار ما يدعم مزاعمها وإبعاد ما يقوضها ويضعفها ، ولأن هناك من يدرج الأمازيغية ضمن الفصيلة الحامية، ومن يدرجها ضمن الفصيلة السامية ، ومن يدرجها ضمن الفصيلة اليافيتية، وهناك من يعتبرها كيانا لغويا مستقلا بنفسه، صارت هذه الأداة غير ناجعة في حقل الصراع الأيديولوجي ، حيث أثبتت أن الأيديولوجيتان تعتمدان أوهام لإثبات الحقائق.

لكن أصحاب الأيديولوجيا كما هو معروف ، لا يسأمون التعلق بأي قشة من شأنها زيادة رأس مالهم الحجاجي، لذلك ينقلون صراخهم من ميدان إلى آخر، فلا الفن ولا الغناء ، ولا الرياضة والمسرح ، ولا المال والأعمال ... نجوا من استعمالات الصراع الأيديولوجي.

من المهم أن نميز بين صراع الأيديولوجيتين بين الجزائريين داخل الوطن، وبين المساهمين في الصراع من خارج الوطن، حيث هذا الأخير تدفعه أسباب وأهداف أخرى ليست محل بحثنا ، وإنما وجب الإشارة إلى أنه يعبر عن مشاكل إندماج في البلد المستقبل تحكمه نظرة البلدان المضيفة لما هو عربي ، فيضطر البعض أن يقول لست عربي ، ولا تعاملوني كالعربي.

2-2-3- جغرافية المنطقة وطبيعة التركيبة الإثنية :

الموقع الجغرافي لكل منطقة هو أمر حاسم في وجودها وتطورها، فمدى غناها وفقرها، مدى قربها من بؤر التوتر أو الاستقرار وغيرها من المعايير العديدة تحكم ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، و يرى الديموغرافيون أن البعد الديموغرافي يدخل في كثير من القضايا والصراعات والمشكلات السياسية ، حيث يكون الجنس أو العرق ، أو العمر، وغيرها من أنواع التركيبات للسكان هو سبب هذه المشاكل والصراعات ، ولسنا مضطرين لإثبات علاقة جغرافية المنطقة بالتركيبة السكانية ، أو بنوعية الحياة الاجتماعية والثقافية فيها، فهذا الأمر محسوم في كل الدراسات السوسولوجية ، لكن ما نبحت عنه بالضبط ، هو إبراز الدور الذي تلعبه الطبيعة الجغرافية للمنطقة في تركيز إثنية واحدة غير قابلة أو غير قادرة على استيعاب التنوع الإثني.

" إن مفهوم الإثنية أهمية خاصة عندما يشكل أساساً لعملية التمييز الاجتماعي (كما هو الحال ، على سبيل المثال ، بالنسبة لحالة اليهود في ألمانيا النازية) ، أو منطلقاً للحركات الانفصالية الداعية إلى الاستقلال (كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي)..... وقد حاول أنتوني سميث في كتابه " الإحياء الإثني " المنشور عام 1981 أن يوضح أهمية المفهوم بالنسبة للفهم السوسولوجي للصراع والتغير في العالم المعاصر. " (جوردون مارشال. (2007). ص 83).

يرى بعض علماء الاجتماع أن مثل هذه الدراسات ، وخاصة عندما تتضمن البحث فيما يطلق عليه (من باب التمرکز حول الذات العرقية) الثقافات الفرعية المنحرفة ، قد تؤدي إلى ترسيخ وتأكيد الاتجاهات العنصرية والتمييز العنصري لدى أغلبية السكان. ومن الأخطاء المرتبطة بذلك أيضا أن يتم دون تدقيق وصم أو إضفاء صورة نمطية على أقلية عرقية على اعتبار أنها أقلية إثنية (أي جماعة ذات نمط حياة وثقافة مشتركة) وهي ليست كذلك .

وعندما تتم دراسة الأقليات الإثنية بمعزل عن المجتمع الأوسع ، يكون هناك ميل لرؤية الأبعاد المميزة لأسلوب معيشتها، باعتبارها امتداد بسيط لتراث التاريخ الماضي لتلك الأقليات ، ومن ثم تفشل هذه الدراسات في التعرف على الطرق التي تشكل وتتغير بمقتضاها، والتي قد ترجع إلى موقعها الحالي في مجتمعاتها القائمة على التقسيم العنصري. وبصفة عامة فإن مثل هذه البحوث تباليغ في تصوير مدى انعزالية تلك الأقليات في بناءات اجتماعية مغلقة نسبياً على أساس عرقي، ومعزولة عن الغالبية في المجتمع. (جوردون مارشال . (2007). ص 598).

لا يمكننا الحديث عن عرق أو إثنية بالنسبة لمنطقة جرجرة ، لأنها تمثل حالة خاصة حيث لا يمكن الجزم بأن سكان المنطقة لهم خصائص مرفولوجية متميزة عن بقية المناطق ، ولا لغة واحدة في الاستعمال اليومي ولا أي محدد من محددات الاثنية الذي ينطبق على جميع السكان ، عكس ما يريد ترويج البعض ليجعل منها مجموعة عرقية منفصلة، في نفس الوقت لا يمكن أن نتجاوز وجود تسمية إثنية للمنطقة و فريق رياضي بنفس التسمية ، وراية تنافس الراية الوطنية ، وعصيان لقرارات السلطة السياسية وهو ما لا نجده في مناطق أخرى.

3- مصير الخطاب الأيديولوجي في ظل حوادث جرجرة :

بعيدا عن المفهوم الفلسفي لتحليل الخطاب ، ودون الخوض في مواطن التقارب والاختلاف بين علماء الاجتماع ، حول طرق التحليل ومبادئه ، نريد أن نبسط للمتلقي ما نستشفه من ثنايا الخطاب والرسائل الإعلامية المصاحبة وعلاقتها بموضوع دراستنا، هذا الخطاب القادر على التموه وتغيير الرأي والمواقف والتلاعب بالأفكار.

لنميز بداية بين خطاب السلطة المتمثل في ما تنتجه أي مؤسسة سواء كانت ثقافية أو سياسية أو علمية أو مجموعة أيديولوجية داخل المجتمع... هذا الخطاب المقروء أو المسموع أو المرئي المقصود ، يعتبره البعض سلطة في حد ذاته يمكنها أن تخرج عن سيطرة المؤلف فتصير بذلك مستقلة أي سلطة الخطاب ، التي تخضع لتحليل آخر غير ما أراده بها المؤلف.

عندما بدأت أحداث الحرائق في المنطقة صائفة 2021 ، شهدنا صورا وأخبارا في الوسط الجماهيري والإعلامي وعبر مواقع التواصل ، تنقل الوقائع تحسس بخطورتها ، تدعوا للتضامن ، تعبر عن المشكل أسبابه وحلوله ، توجه رسائل سياسية ، كانت سوق خطابية لا تستهوي الزبون - المتلقي - ، وبمجرد انتشار خبر جريمة حرق مواطن بريء ، حضر الخطاب بسلطته ، وجاءت فرصة السوق الخطابية لتزدهر نظرا للطلب الهائل على النماذج أو القوالب - صور وأخبار - المساعدة على إظهار وتسويق خطاب السلطة الذي يتمكن في كل مرة أن يتحول إلى سلطة متحررة من مؤلفها بما أن المشاركين فيه هم من مختلف الطبقات والمستويات.

سعى المشاركون في الخطاب الدائر حول الجريمة لتبيان أسبابها، توصيفها وتصنيفها ، ما يجب أن يكون حتى لا تتكرر، ثم ظهر نوعان من الخطاب الأول بملامح عروبية وطنية يدعي إزالة الحدود على المنطقة واسترجاعها وضمها لبقية مناطق الوطن ، وخطاب ثاني فقد ملامح الأمازيغية والفرنكوفونية يتجاهل الحدود ويتجاوزها ، واجتهد الطرف الأول ليثبت حقيقته وصحته في مواجهة الخطاب المخالف، وإن كان هذا الأخير قد فقد قوته وحججه، وتخلص من قوالبه القديمة مدركا نتائجها السلبية في هذه اللحظة.

ما يلاحظ هو تكرر نفس الخطاب بكلمات وصور جديدة مستمدة من وقائع الجريمة ، الهدف هو إثبات الحقيقة وصحة التوجه، في محاولة لكسر الحدود ، فهل سينجح هذا الخطاب ، أم ستكون النتائج عكسية وتزداد الحدود صلابة وتركيزا ؟

ما يطرحه العروبيون ومن لهم تقارب في الأيديولوجيا أوسع انتشارا ، وأكثر تأثيرا مسنودا ببربرية الواقعة ، وانتماء مرتكبيها وانتماء الضحية ، وما يطرحه خصومهم لا يتجاوز دفاع المتهم عن نفسه لإبعاد الشبهة عن حقائقه المتزعزعة.

كباحثين ليس من حقنا الحكم على أي توجه ، إنما نصف الخطابين كما نراهما، هدفنا معرفة أثرهما في مستقبل الصراع الأيديولوجي بين نزعتين تريد كل منهما استيعاب الآخر ورسم حدود للهوية من صنيع أفكارها.

لاشك أن أثر الفاجعة واستعمالها كحقل للصراع الأيديولوجي سيكون في صالح العروبيين ، من ناحية قوة الخطاب ولكن هل سيحقق أهداف المؤلف ، وهل سيرسم الحدود التي يسعى إليها المؤلف ؟ هل ستبنى السلطة السياسية هذا الخطاب بما فيه من قوة أم ستستغله من أجل قوتها؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات ، والاحتمالات التي نوردتها قد تساعدنا على استشراف مستقبل الهوية في الجزائر.

الاحتمال الأول: أن يعتقد المؤلف - العروبيون - أن أيديولوجيتهم انتصرت ويجب تكريسها، وتتبنى السلطة السياسية نفس المعتقد وتسايره. وفي هذه الحالة سيتحول المنهزمون إلى مضطهدين، وتتحول مسألة الهوية إلى طرح تأمر واضطهاد .

الاحتمال الثاني: أن ينصرف المؤلف - العروبيون - عن أيديولوجيتهم، ويفسحوا المجال لخطاب السلطة السياسية لتكمل مشروعهم ، فيتحول موضوع الهوية إلى قضية سياسية بحتة.

الاحتمال الثالث: أن تتولى السلطة السياسية زمام الأمور بعيدا عن أي أيديولوجيا، ويكون خطابها هو الأقوى ، لتدخل الجميع إلى بيت الطاعة بما لديها من وسائل - مؤسسات - وسلطات فكرية وقانونية - كل أنواع الخطاب - وبهذا تضيق حدود الأيديولوجيتين وترسم الحدود الجامعة والموحدة.

الاحتمال الرابع: أن يكون خطاب السلطة السياسية أضعف من أيديولوجيا واحدة ، فيفسح مجال للتطرف وتكون المواجهة بين الأيديولوجيتين أعنف وأخطر.

الاحتمال الخامس: أن يكون خطاب السلطة السياسية أضعف من الأيديولوجيتين ، فيستمر الصراع لكن باتجاه السلطة السياسية لانتزاع وسائلها ومؤسساتها ، فتتحول القضية إلى هوية نظام سياسي مأزومة.

كل الاحتمالات التي وضعناها لا تأخذ بعين الاعتبار الخطاب من خارج الوطن، سواء جاء من جزائريين مقيمين بالخارج، أو من قوى أجنبية لم تكف يوما عن محاولة التأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للوطن بما يخدم أهدافها ومصالحها.

من المعلوم أن الأيديولوجيا الغالبة من خارج الوطن، هي الفرنكو بربرية، أي تلك التي تعتمد الفرنسية كلغة حوار والأمازيغية كموضوع لأفكارها، وهي نتيجة خليط سياسي وثقافي، جزائري وأجنبي، تختلف أهدافه وغاياته وتتفق على خصم واحد هو الأيديولوجيا العروبية الإسلامية.

كثيرا ما اعتمدت هذه الأيديولوجيا المتواجدة بالخارج، على شعار الحرية والعدالة والدفاع عن الديمقراطية لتتسلل إلى أوساط الجزائريين داخل الوطن وخارجه، وتكون المؤثر في أفكارهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية، ومن المستبعد أن نراها تخرج من المشهد الجزائري، لكن الحدث التاريخي الذي تعيشه الجزائر، يحتم عليها أن تغير من خطابها وتتخلى عن بعض وسائل هذا الخطاب وعن بعض المؤلفين له.

ستحاول هذه الأيديولوجيا أن تتلاعب بالصور التي ثبتتها أحداث الحرائق والجريمة التي هزت المعتقدات وزعزت أركان الأيديولوجيا الفرنكو بربرية، وستعيد ترتيب المشهد حيث تفقد الأحداث الأساسية أهميتها، وتتصدر مشاهد المآسي الإنسانية الواجهة. ستصير المنطقة ليست ضحية كوارث طبيعية فقط بل ضحية أيديولوجيا عروبية إسلامية تستغل مآسيهم، وقد تورط السلطة السياسية في سبب هذه المآسي، وفي هذه الحالة ستتنحصر هذه الأيديولوجيا في منطقتها، أي خارج الوطن ولن يكون خطابها سلطة على الجزائريين، لذلك نعتقد أن الدوائر المسؤولة عن تأليف الخطاب ستستدرك خطأها وتتجه لإنتاج خطاب آخر، تكون له قابلية إلى الولوج والتسويق داخل الجزائر، معتمدة على خصائص المستهلك المعتاد على خطابها، وعلى الحالة الذهنية التي يعيشها جراء هذه الحادثة.

إن معرفة خصائص المستهلك للخطاب الأيديولوجي الفرنكو بربري، و الحالة الذهنية التي يعيشها جراء هذه الحادثة، هي ما سيساعدنا على فهم الخطوط العريضة التي ستلتزم بها الدوائر المسؤولة عن تأليف الخطاب، لذلك ستأخذ بعين الاعتبار أثر الجريمة في زعزعة الأفكار ومحاسبة الذات، الخوف والضعف الذي غرسته في الوجدان، الريبة والشك الذي فرق الصفوف، أما الخصوصيات كالتمسك بالأرض واللغة والولاء للقبيلة وعدم الثقة في الآخر وفي أفكاره ستكون كلها محل مراجعة لأنها أصيبت في كيانها وقد لا تصمد وتنهار.

نتيجة لما ذكرنا، لن يتسرع الخطاب الأيديولوجي الفرنكو بربري في الرجوع إلى حلبة الصراع، بل سيعتمد على التريث والبناء على ما ستستقر عليه سوق الخطاب في الداخل، ومن ثمة الانطلاق من جديد بوسائل ومؤلفين جدد.

خاتمة :

يتساءل القارئ كما الكاتب، في ظل هذا الصراع الأيديولوجي، هل تعتبر البراغماتية هي الحل؟ تبدو الإجابة بالرفض أو القبول في حد ذاتها نوع من الأيديولوجيا. لذلك نعيد صياغة السؤال بطريقة أخرى، هل البراغماتية حتمية، ألا يوجد مخرج آخر للابتعاد عن الصراع الأيديولوجي؟

الاعتراف بالحنمية يمثل نهاية التاريخ وتوقف الزمن ، لذلك تبقى الدعوة مفتوحة للدارسين والباحثين للبحث عن مخرج من مأزق الأيديولوجيا ، ولتكن البداية بالتخلي عن الاستعمال الخاطئ للقوالب الجاهزة الموروثة عن ثقافتنا مهما كان مصدرها ، ولنفكر في بدائل فكرية تشكك في الموروث على الأقل قبل استعماله إن لم تجد ما يصلح من حاضرها ، وفي هذا الزمن الذي نعيشه لا نكاد نستوعب ما يدور حولنا حتى تتسارع الأحداث من جديد ، وتتغير المشاهد وتدعونا للتخلي عن أوهامنا وإلى مزيد من الوعي بواقعنا ومستقبلنا.

الاحالات والمراجع :

المراجع العربية :

- أم الخير تومي. (أفريل 2009) . ازدواجية النخبة في الجزائر "النخبة الإعلامية كمثال" . مجلة المستقبل العربي. العدد 374.
- بشرى عناد مبارك . (2013) . التعصب وعلاقته بالهوية الاجتماعية والمكانة الاجتماعية لدى العاطلين عن العمل . مجلة الفتح . العدد الثالث والخمسون . كلية التربية الاساسية . جامعة ديارى.
- جناوي عبد العزيز . (2003) . الصراع الاجتماعي باللغة . دراسة ميدانية للمنظومة التعليمية بالثانوية و الجامعة . تيارت . الجزائر:
- جوردون مارشال . (2007) . موسوعة علم الاجتماع . ترجمة: محمد الجوهري وآخرون . المجلس الأعلى للثقافة . المشروع القومي للترجمة . مصر: الطبعة الثانية. المجلد الأول.
- جون توملينسون . (2008) . العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان . ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد . العدد (354) من سلسلة عالم المعرفة .
- جون ر. سيريل R.Searle John . (2012) . بناء الواقع الاجتماعي من الطبيعة الى الثقافة . ترجمة حسنة عبد السميع . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة .
- عبدالله العروي . (2012). مفهوم الأيديولوجيا . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب : ط 8 .
- محمد بن عميرة . لطيفة بشاري بن عميرة . (2015) . تاريخ بجاية في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين. ط1. دار الفاروق للنشر والتوزيع. الجزائر.
- محمد خروبات . الأبعاد الثقافية والأيديولوجية للفرنكوفونية بالمغرب . <https://al-2021/04/12/org/book/1541/4313#p2.maktaba> تاريخ الزيارة
- منير محمود بدوى . (1997) . مفهوم الصراع : دراسة في الأصول النظرية للأسباب والأنواع . مجلة دراسات مستقبلية . مركز دراسات المستقبل ، . جامعة أسبوط . مصر: العدد الثالث .
- ميكل تومبسون، ريتشارد إليس، آرون فيلدافسكي . (1997) . نظرية الثقافة . ترجمة : علي سيد الصاوي. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت .

- موسى أحمد بني خالد . (2002) . دور القبائل البربرية في العلاقات السياسية . رسالة دكتوراه في التاريخ . كلية الدراسات العليا . الجامعة الأردنية .
- لونيس فارس . (2012-2013) . سياسات الهوية لدى الأحزاب السياسية في الجزائر . مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية . تخصص السياسات المقارنة . جامعة الدكتور طاهر مولاي . سعيده .
- يوسف زلغوط . (2021) . الأيديولوجيا ووظائفها السياسية . أوراق ثقافية . مجلة الآداب والعلوم الإنسانية . السنة الثالثة . العدد الثاني عشر . المجلة : ISSN 2663-9408 الموقع : ISSN 2663-9416 .

المراجع الأجنبية :

- VOLUME REVUE AFRICAINE - l'armée interprète de ALPH, MEYER. (1958) .
3 , A. JOURDAN, LIBRAIRE-ÉDITEUR –N13 .
- TOME SIXIEME. .1862 juillet 20 ‘Napoléon-. Fort)H. TAUXIER . (1828-1896 -
OU LES DEBUTS DE L'HISTOIRE . (MASSINISSA, AUX ORIGINES DE LA BERBERIE
2009)
تعريب وتحقيق د. العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية .
- E. CARETTE- CHEF DE BATAILLON DU GÉNIE, MEMBRE ET SECRÉTAIRE DE LA
EXPLORATION SCIENTIFIQUE DE (1842). COMMISSION SCIENTIFIQUE D’ALGÉRIE.
L’ALGÉRIE PENDANT LES ANNÉES, 1840, 1841, 1842 .ORIGINE ET MIGRATIONS DES
.PARIS IMPRIMERIE IMPERIALE PRINCIPALES TRIBUS DE L’ALGÉRIE
- M. G. OLIVIER . Avocat, Officier d’Académie, secrétaire perpétuel de l’Académie d’Hippone,
ORIGINE ‘Membre correspondant de’Académie de Caen- BÔNE. (1867). RECHERCHES SUR L
.imprimerie DAGAND. P 95 DES BERBÈRES
- DE ARS`ENE BERTEUIL ANCIEN PHARMACIEN EN CHEF DES HOPITAUX MILITAIRES
. L’ALGERIE FRANCAISE .TOME PREMIER PARIS-DENTU,)1856(.L’ARMEE D’AFRIQUE
LIBRAIRE-EDITEUR PALAIS-ROYAL, 15, GALERIE VITREE .
- ERNEST LEROUX EDITEUR RUE –JULES LOREL .(1892). KABYLIE DU JURJURA
. 28 BONAPART
- Published by ‘Maghrib Inventing the Berbers : History and Ideology in the RAMZI ROUGH .
www.upenn.edu/pennpress University of Pennsylvania Press Philadelphia, Pennsylvania 19104-4112
Printed in the United States of America on acid-free paper ; 151-12-231-156